بحث بقلم شيخنا الفاضل قاسم الحنفي نشر في مجلة التصوف الإسلامي في عددها السادس نشرناه لتعم فائدته

موقف أئمة السلفية من التصوف والصوفية

بحث نافع في بيان موقف أبرز مشايخ أئمة السلفية من علم التصوف وطريق السادة الصوفية وضعناه لإحقاق الحق وإبطال شبهات الباطل

لا يخفى على العاقل الفطن أن أمتنا الإسلامية قد مرَّتْ بفتنٍ فكرية وآراء الفرق الباطلة مما أدَّى الى إضعافِ النهضةِ الإسلاميةِ وتسلُّطِ الظَّلَمة عليها وظهورِ حركاتٍ إسلاميةٍ تزعُمُ التجديدَ والنهوضَ بالأمة ومُتابعةِ السَّلف ، وكان من أوائلِ جهودها في الساحة الإسلامية تنفيرُ النَّاس عن مُتابعة أئمةِ المذاهبِ الأربعةِ المتبوعةِ ، وتكفيرُ السادة الصُّوفية ، وتقبيحُ التَّصوف في نفوس العامَّة ، كلُّ ذلك كان بأسمِ أئمةِ الحركةِ السَّلفيةِ كالشيخ إبنِ تيمية رحمهُ الله تعالى وتلامذتِهِ كأبنِ القيِّم والذَّهَبي وإبنِ كثير وابن رَجَبِ الحنبلي ، ومُتابعيه من المتأخرينَ كالشيخ محمَّد بن عبدِ الوهاب ، وسَنَعرِضُ للأمةِ أجمعَ موقفَ هؤلاءِ الأئمة من التصوف والصوفية ليعلمَ القاريءُ يقيناً مدى عَلاقة أدعياء السلف ، والمتَسلِّفينَ بسلف الأمة الصالح ، ومعلومٌ أنَّ مَنْ حافظَ على عقيدة الأمة إزاءَ أفكار الغُلاة الباطنية وآراء أهل الضَّلال والحركات التَّشويهية ، هُمْ السادةُ الصوفيةُ من الفقهاء والمحدِّثين ودُعاةِ الحقِّ الى الحقِّ تعالى ، ولو فتَّشتَ كُتبَ المسلمين من المخطوطات والمطبوعات السَّالفة في الردِّ على الغُلاة الباطنية لوجدتَ أكثرَها إنْ لم نَقُلْ جميعَها لعلماء السادة الصوفية مِنَ الأشاعرة والماتُرديَة الذين هم سُورُ عقيدةِ أهل السُّنة والجماعة والمُنافحونَ عنها ، وها نحنُ الهيئةُ العلميةُ للمَجلّة نبدأُ أوَّلَ حلقاتنا في هذه المَجلّة من عَرْضِ موقف أئمة الحركة السَّلفية من التَّصوف والصوفية بكل أمانةٍ وحرصٍ نسأل اللهَ أنْ ينفعَ بها جميعَ المسلمين .

الحَلقة الاولى

إنَّ بعضَ الفِرق الباطنية من الغُلاة وغيرِهم بدأتْ تنشُطُ بقوةٍ لنشرِ سُمومها في مجتمعاتِنا الإسلامية لاسيَّما بعد ظُهورِ آثار النَّهضة الإسلامية فيها ، ويسعى أصحابُ الهَوى والأغراض الفاسدة ممن جاء بكفرٍ صريحٍ وباطلٍ مَحضٍ إلى خداع الأمة بأنَّ دعوتَهم هي الإسلامُ الحقُّ كذباً وزوراً ، فَخُذْ مثلاً : القاديانيةَ الكافرةَ يدَّعي زنادقتُها أنَّ كفرَهم هو الإسلامُ

الحقيقيُ خذ مثلاً : أيضاً الغُلاةَ الباطنيةَ الذين قالوا إنَّ إعتقادَنا هو الإسلامُ الحقُ وهم قائلون صراحةً بتحريفِ القرآن الموجود بأيدي المسلمين اليوم ، وبشَتْمِ ولعنِ أصحابِ رسول الله r والنيل من عِرْضِ أمِّ المؤمنين سيِّدتِنا عائشةَ رضي الله عنها مع عقائدَ ضالَّةٍ تَمسُّ الحقَّ سبحانه وتعالى ومع ذلك كلِّهِ يقولون نحن المسلمونَ وعقيدتُنا هي الإسلامُ الحقُ زوراً وكَذِباً وعُدْواناً ، وبعدَ هذا كلِّهِ نشأتْ جماعةٌ قبلَ عَقدينِ من الزَّمن تدَّعي مُتابعة السلف وتزعمُ أنَّها ناقلةٌ لأقوالِ السلف وماضيةٌ في طريق السلف ذلك بأسم السَّلفية ، وتنظر إلى كثيرٍ من مُتصوِّفة اليوم ممن خرجَ عن جادَّة الصَّواب في متابعةِ سلفِ الأمة : أنَّ هؤلاءِ هم الصُّوفية وهذا هو التَّصوُّفُ جَهْلاً وعدواناً بل كذباً وبُهتاناً ، وجَرَّهم هذا الى هَتْكِ الحُرمات وسَفك الدماء بغير حقّ ، والصوفيةُ عند أئمة الحركة السلفية طائفةٌ إسلاميةٌ كبقيةِ الطوائف الإسلامية الأخرى كالمحدِّثين والفقهاء والمتكلمين والمؤرخين والمجاهدين وغيرِهم ، فيهم المُصيبُ والمخطيءُ ، والصالحُ والطالحُ ، ولكنْ إذا أُطلِقَ لفظُ الصوفية فأنه يُرادُ به دائماً الصالحُ والمصيب والصحيحُ منهم ، فمثلاً لو قلنا : المحدِّثون ، فالمرادُ بهم عند الجميعِ المحدثونَ الصالحونَ الذين حَفِظُوا على الأمة أحاديثَ رسولِ الله r وخَدمُوها وبلَّغوها ونشرُوها بالطريقة المرضيَّة كالإمام البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم ، ولا يُرادُ بكلمة المحدثين مطلقاً عند علماء أهل السنة والجماعة أولئك " الدجالونَ الوضّاعون الكذّابون " المنتسبون الى هذه الطائفة المُباركة ، وهؤلاء الكذابون قد شرحَ فسادَهم ودجلهم أئمةُ الجرح والتعديل في كل عصر وزمان كما هو معلومٌ للجميع ، وهكذا يقالُ في الفقهاء والمتكلمين ، وأيضاً يقالُ في الصوفية ، فعندما يقال " الصوفيةُ " يكون المراد منهم حتماً : الفضيل بن عياض ، ومعروف الكرخي ، وأبو سليمان الداراني ، وبشر الحافي ، والجنيد البغدادي ، وعبد القادر الجيلاني وغيرهم ممن سار على نهجهم القويم ، ولا يرادُ بالصوفية قطعاً أولئك الدَّجالون المنحرفون المخالفون للكتاب والسنة الدُّخلاءُ على التصوف وقُطَّاعُ الطريق الى الله والدارِ الآخرة ، بل الذي نَدينُ الله تعالى به ونلقاهُ عليه أنَّ هؤلاء الأئمةَ كالجنيد والغزالي والجيلاني وغيرِهم يُؤخَذُ من قولهم ويُترَكُ إلا الصادقَ المصدوقَ r ، فالحُجَّةُ هو الكتابُ والسنةُ ، فما وجدناه مُوافقاً لهما فعلى العَيْنِ والرَّأسِ وما خالفهما فمردودٌ متروكٌ ، وفتنةُ تلكم الطائفةِ المُتسلِّفةِ بدأتْ تنشطُ فكان لزاماً على العلماء ورثة الأنبياء وأهل الحق أن يَبذُلُوا جهودَهم في بيان الحق الحقيق بالإتِّباع والمُنافحة عن أئمتنا

أهلَ السنة والجماعة ، روى البيهقيُّ في كتاب المَدخل عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري مُرسلاً أنَّ رسول الله : r قال : يَحمِلُ هذا العلمَ من كل خَلَفٍ عدولُهُ يَنفُونَ عنه تحريفَ الغالينَ ، وإنتحالَ المُبطِلينَ ، وتأويلَ الجاهلينَ ، وروى مسلمٌ عن أبي سعيد الخُدْري t عن رسول الله r قال : مَنْ رأى منكم مُنكراً فليُغيّرهُ بيده ، فأن لم يستطعْ فبلسانهِ ، فأن لم يستطعْ فبقلبهِ ، وذلك أضعفُ الإيمان . وقد بدأ ولله الحمد جمعٌ غفيرٌ من العلماء في أصقاع الأرض في الذَّبِ عن التصوف والصوفية وفَصْلِ العَلاقة التي إدَّعاها الأغمارُ المتسلّفون بين الصوفية والتشيُّع ، وهذا بهتانٌ عظيمٌ يرادُ به خلطُ الحقائق وإخراجُ بعض أئمة أهل السنة من دائرة الحق بدعوى أنهم قالوا : بوَحْدةِ الوُجودِ وغيرِها ، والحقُّ أن لهذه تفسيراً وجيهاً مِمَّنْ قال بها من المتأخرين يُباينُ ما فَهِمَهُ هؤلاءِ من الحُلول والإتحاد أعاذنا الله تعالى منه ، وها نحنُ نُبيِّنُ لك أخي القاريء الكريم موقفَ بعض أئمة أهل السنة والجماعة من الذين يَنتسبُ إليهم أصحابُ الحركة السلفية فنقولُ وبه تعالى نستعينُ :

قبلَ أن نشرعَ في ذكر قِطَعٍ متنوِّعة من كلام الإمام إبن تيميةَ من مؤلفاته المُختلفة نذكرُ أولاً أجزاءً مُتفرِّقةً من رسالة طويلة لأحد أصحابه الكبار وهو الشيخ عماد الدين إبن شيخ الحزاميين ، ثم نذكرُ أجزاء مُتناثرةً من أربعة قصائد في رثاء الشيخ إبن تيمية نظمها أصحابُهُ ومُحبُّوهُ يظهرُ منها جلياً أنه كان عندهم شيخَ الطريقة وإمامَ التصوف ، ثم نردفُها بقطعٍ من كلام بعض المؤلفين المحققين المعاصرين الذين صرّحوا بعلاقة الشيخ إبن تيمية الوثيقة بالتصوف والسادة الصوفية رحمهم الله تعالى ، ثم بعد ذلك نأتي بمشيئة الله بكلامه من مؤلفاته المتنوّعة : يقول الإمام السلفي الحافظ محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي في مؤلفه العُقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية في مطبعة المدني بالقاهرة ص١٩٢ ما نصه : وكان مجموع غيبته عن دمشق سبع سنين وسبع جمع وقد توفي في أثناء غَيبة الشيخ عن دمشق غير واحد من كبار أصحابه وساداتهم منهم : الشيخ الإمام القدوة الزاهد العارف عماد الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الواسطي المعروف بإبن شيخ الحزاميين .

ثم قال : وكان قد كتب رسالةً وبعثها الى جماعة من أصحاب الشيخ وأوصاهم فيها بملازمة الشيخ "أي إبن تيمية " . وننقلُ بعض كلماته التي نقلها إبن عبد الهادي عن شيخ الحزاميين في حق الشيخ إبن تيمية .

قال عماد الدين أحمد بن إبراهيم الواسطي وهو يصف شيخه بمصطلحٍ للصوفية : الجامعُ بين الظاهر والباطن فهو يقضي بالحق ظاهراً وقلبه في العُلى قاطن . ويقول : أيضاً مُوصياً أصحابَ الشيخ إبن تيمية : ولتكنْ الهمةُ منقسمةً على نيل المراتب الظاهرة وتحصيل المقامات الباطنة ، ثم يقولُ : فمن كان له مع ربه حالٌ تحركت في تلك الساعة عزائمُهُ ، وأبتهجتْ بالمحبة والتعظيم سرائرُهُ . ثم يقولُ : وقد عرفتم ما أحدثَ الناسُ مِن الإحداث في الفقهاء والفقراء والصوفية والعوام.

ثم قال بعد كلام نافعٍ طويل : وتلك الخصوصيةُ أن تُرزَقُوا قسطاً من نصيبه الخاص المحمدي مع الله تعالى فإن ذلك إنما يسري بواسطة محبة الشيخ للمريد وإستجلاب المريد محبة الشيخ بتأتيه معه . أهـ وها أنت ترى كيف تفنَّن شيخَ الحزاميين في إستعمال ألفاظ السادة الصوفية وهو يمدحُ شيخه إبن تيمية بل ينبّهُهم على أنَّ الناس قد أحدثوا في طريق الفقهاء والصوفية ما أحدثوا بقوله : وقد عرفتُم ما أحدثَ الناسُ من الإحداث في الفقهاء والفقراء والصوفية إلخ.

وهذا يدلُّنا على أن الشيخ وأصحابه كانوا يُنكرون المتصوِّفة الأدعياء الذين أحدثوا في التصوف ما يخالف الشريعةَ الغراء ولم ينكروا على الصوفية والتصوف بثوبه الإسلاميِّ .

وذكر الإمام إبن عبد الهادي الحنبلي في العقود الدرية أيضاً قصيدةً طويلةً من نظم الشيخ عبد الله بن خضر بن عبد الرحمن الرومي الأصل الدمشقي الحريري المعروف بالمتيم يُرثي الشيخ إبن تيمية وهو أحد أصحابه ، وننقلُ بعضَها للوقوف على حقيقة الشيخ وأصحابه :

فمن كان قطبَ الكون في حال عصره
سواه ؟ ومن كان قد فاز بالبدليّة
شجاعٌ همامٌ بارعٌ في صفاته
يرومُ مراماً في المراقي العليّةِ
ويأمر بالمعروف حبّاً لربه
وينهى عن الفحشاء نهياً بهمةِ
تقيٌّ نقيٌّ طاهرُ الذيل مذ نشأ
كريم السجايا ذو صفات حميدةِ
أليس الذي قد شاع في الكون ذكرُهُ

وعمَّ البرايا بالفتاوى العظيمةِ

فمن كان تاجَ العارفين لوقتنا

وشيخَ الهدى؟ قل لي بغير حميّةِ

هو الحَبْرُ والقُطْبُ الذي شاع ذكره

وفاح شذاه كالعبير المفتتِ

وذكر إبن عبد الهادي عن المتيم الرومي قصيدة أخرى في رثاء الشيخ إبن تيمية من كتابه العقود الدرية ص٣٢٠ :

قطبُ الزمان وتاج الناس كلهمو

روح المعاني حوى كل العبادات

قطبُ الحقائق حاروا في فضائله

أهلَ التصوف أصحاب الرياضات

فها أنت ترى كيف يَصِفُ صاحبُ الشيخ إبن تيمية المتيم الرومي الحريري شيخَهُ بالقطبية والبدلية وهما من المقامات التي ذكرها أئمةُ الصوفية .

وينقلُ إبن عبد الهادي الحنبلي في العقود الدرية قصيدة طويلة من القصائد التي رثي بها الشيخ إبن تيمية وهي للشيخ بدر الدين محمد المغيثي ، وذكر أنه عرضها على الإمام أبي حيّان وإليك بعضها:

حدِّث بلا حرج وقل عن زهده

ما شئت لا ردٌ ولا آثامُ

هجر المطاعم والملابس والدنى

ولعزمه في تركها إحزام

وله فتوحٌ من غيوب إلهه

وتحزنٌ وتمسكنٌ وكلام

وتصوّفٌ وتقشّفٌ وتعفّفٌ

وقراءة وعبادةٌ وصيام

ووضح لك وصفُ هذا الشيخ المرثي شيخَهُ إبنَ تيمية بالتصوف والتقشف وهو لا يصفه بهذا إلا وهو عالمٌ بحالهِ وسيره وإلا يكون رجماً بالغيب وحاشاه من ذلك .

وينقل الحافظ إبن عبد الهادي في كتابه العقود الدرية مرثية في الشيخ إبن تيمية ولم

يذكر ناظمها والظاهرُ أنه أحد طالبيه ومريديه وإليك بعضها :

ياليتني يوم الفراق حضرته

حتى أجدِّد ما مضى من موثقي

هو شيخُنا ورئيسُنا وإمامُنا

لله در الطاهر الحبر التقي

شيخُ الطريقة والحقيقة عارفٌ

وَرِثَ الإمامةَ والعلومَ فحقِّقِ

وينقل لنا العلامة المؤرخ السيد أبو الحسن الندوي في كتابه " رجال الفكر والدعوة في الإسلام " ما نصه : (شيخ الإسلام إبن تيمية كعارف بالله ومحقق (عُرِفَ شيخُ الإسلام إبن تيمية بوجه عام كعالم متكلم وفقيه جدلي ومحدث كبير . ثم قال : والذين عرفوه عن طريق التراجم التي كتبها عامة المؤرخين أو قاسوه على تلاميذه المتأخرين والمنتسبين إليه لا يرون فيه شيئاً أكثر من محدث جاف وعالم متبحر في العلوم الظاهرة .أهـ

ثم ذكر ما قاله الحافظ إبن القيم الجوزية في مدارج السالكين من أحواله وأقواله وما قاله الحافظ الذهبي وأمثاله في ترجمته من أخلاقه وأذواقه ما يدلُّ دلالةً واضحةً أن الشيخ إبن تيمية كان من العارفين وأهل الله.

ثم يقول النَّدوي : وهنالك ينشرحُ كلُّ صدر للإعتراف بأنه كان يتبوأ تلك المكانة ويتمتع بجميع تلك الغايات التي لا تتيسر بوجهٍ عامٍ إلا برياضات شاقة ومجاهدات طويلة وتربية أئمة الفن ودوام الذكر والمراقبة وذلك ما يُعبَّر عنه الصوفيةُ المتأخرون بالنسبة مع الله " وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء " أهـ

وننقلُ ما كتبه بعض المعاصرين من بيان موقف الشيخ إبن تيمية من التصوف والصوفية فها هو الفاضل المحقق أحمد بن محمد بناني ينقل في كتابه موقف الإمام إبن تيمية من التصوف والصوفية الذي طبع في جامعة أم القرى بمكة المكرمة سنة ١٤٠٦ هـ يقول تحت عنوان ملخص الرسالة : هذه الرسالة " موقف الإمام إبن تيمية من التصوف والصوفية " تتناولُ كما هو واضح من عنوانها بعضاً مما كتبه الصوفية من موضوعات وما جرى بينهم من أبحاث ومناقشات وتعرض من ذلك من وجهة نظرهم وما أستدلوا به على أرائهم ، ثم تبين موقف الإمام إبن تيمية في ذلك الموضوع من نقد أو تأييد وإجمال أو

تفصيل ، وفي أثناء ذلك يَتَّضحُ الرأي الصحيح المستحق للتأييد من الرأي السقيم المستحق للإنكار، ومن مجموع كل ذلك يتضح موقف الإمام إبن تيمية الإجمالي من التصوف والصوفية ، وقد ظهر لي أن الإمام إبن تيمية لم يكن يعادي التصوف على إطلاقه بل أنكرمنه ما لا يوافق الكتاب والسنة وما لم يكن مأثوراً عن أحد من الصحابة والتابعين ، وقد تبين لنا في موضوعات البحث المسماة عند الصوفية بالمقامات والأحوال أن الإمام إبن تيمية أكثر علماً وأدق تعبيراً وأكثر تفصيلاً في بعضها عن غيره ممن كتب في هذه الموضوعات ... إلخ.

كما أنه قال في خاتمة الكتاب ما نصه : وقد تبيَّنُ لنا في الرسالة : إن الإمام إبن تيمية إتخذ ميزاناً حقاً صادقاً في محاسبة هؤلاء ألا وهو الكتاب والسنة.

ثم قال : ونختم هذه السلسلة من كلام المؤلفين المحققين المعاصرين مما ذكره المحقق الدكتور ماجد عرسان الكيلاني الإستاذ بكلية التربية بجامعة المللك عبد العزيز – فرع المدينة المنورة – من كتابه " الفكر التربوي عند إبن تيمية " يقول الدكتور الكيلاني في صفحة ١٨ ناقلاً عن بعض الباحثين ما نصه : إن طريق إبن تيمية والدرجة العالية من الفهم الشامل للإسلام لديه لا يرفضان مكانة الزهد والتصوف إذا كانت محتويات الزهد ومضامين التصوف صحيحة النقل صائبة المحتوى.

ثم يقول في صفحة ١٧٧ : وآخرون مازالوا يصرون على إن إبن تيمية لم يكن معادياً للصوفية وأنه هو نفسه كان صوفياً تلقى صوفيته من الطريقة القادرية ، والواقع أن ما أستهدفه إبن تيمية هو إبرازٌ للتصوف كمدرسة تربوية هدفها الأساسي تهذيب النفس وتطهيرها من أخلاقها الذميمة ولذلك عارض كل إنحراف طرأ على التصوف فيما يخص هذا الهدف وكل ما يخالف القرآن والسنة في هذا المجال ، وإنطلاقاً من هذه القاعدة أظهر إبن تيمية إحتراماً كبيراً لرواد الزهد وشيوخ التصوف الذين إلتزموا بالقرآن والسنة من أمثال الفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم والسري السقطي والجنيد وحماد الدباس والشيخ عبد القادر الجيلاني وعدي بن مسافر

قال الإستاذ أحمد بن محمد البناني : وأما ماذكره – أي هذا الباحث – حول إنتساب إبن تيمية للقادرية فقد أستند فيه الى سلسلة شيوخ إبن تيمية التي تبدأ بموفق الدين بن قدامة تلميذ عبد القادر المباشر وخريج المدرسة القادرية في بغداد ، وأستند كذلك من الإحترام والتقدير اللذين يبثُّهما إبن تيمية في كتاباته للشيخ عبد القادر ، فهو في

رسائله وكتبه يشير الى الشيخ عبد القادر بنفس المستوى الذي يشير فيه الى الإمام إبن حنبل من خلال الألقاب التي يسبغها عليه فهو " قطب العارفين " وهو " شيخنا أبو محمد قدّس الله روحه " وهو " أعظم زماننا أمراً بإلتزام الشرع. "

ثم قال : وإذا ضرب إبن تيمية مثلاً – في الفتاوى كتاب علم السلوك ج١٠ ص٦٦٨ – قال : ولهذا كان الشيخ عبد القادر ونحوه من المشايخ ، وهو كثير الإستشهاد به كنموذج يقتدى به في الإعتقاد والسلوك . أهـ

وحان لنا أن نشرع بذكر جملٍ متنوعةٍ من كلام الشيخ إبن تيمية وذلك من مؤلفاته تتعلق بأمور التصوف ويأتي فيها ذكر السادة الصوفية وأحوالهم فنقول :

1.قال الشيخ إبن تيمية في مجموع الفتاوى " جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي الطبعة الأولى سنة ١٣٨١ هـ بمطبعة الرياض م١١ ص٥ " سئل شيخ الإسلام قدس الله روحه عن الصوفية ، وأنهم أقسام والفقراء أقسام فما صفة كل قسمٍ ؟ وما يجب عليه ويستحب له أن يسلكه ؟

فأجاب : الحمد لله ، أما لفظ الصوفية فأنه لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة وإنما أشتهر التكلم به بعد ذلك وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ كالإمام أحمد بن حنبل وأبي سليمان الداراني وغيرهما ، وقد روي عن سفيان الثوري أنه تكلم به ، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري ، وتنازعوا في المعنى الذي أضيف إليه الصوفي فأنه من أسماء النّسَب كالقرشي والمدني وأمثال ذلك ، فقيل : إنه نسبة الى أهل الصفة وهو غلط لأنه لو كان كذلك لقيل : صُفّي ، وقيل : نسبة الى الصف المُقدم بين يدي الله وهو أيضاً غلط فأنه لو كان كذلك لقيل صَفّي ، وقيل : نسبةٌ الى الصفوة من خلق الله وهو غلط لأنه لو كان كذلك لقيل : صَفَويّ ، وقيل : نسبة الى صُوفة بن بشر بن أدّ بن طابخة قبيلة من العرب كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم ، ينسب إليهم النُساك ، وهذا وإن كان موافقاً للنّسَب من جهة اللفظ فأنه ضعيفٌ أيضاً لأن هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند أكثر النُساك ، ولأنه لو نُسبَ النُساك الى هؤلاء لكان هذا النسب في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى ، ولأن غالب من تكلم بأسم " الصوفي " لا يعرف هذه القبيلة ولا يرضى أن يكون مضافاً الى قبيلة في الجاهلية لا وجود لها في الإسلام ، وقيل : – وهو المعروف – إنه نسبة الى لبس الصوف ، فأنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة ، وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد ، وعبد الواحد من

أصحاب الحسن وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك مالم يكن في سائر أهل الأمصار ، ولهذا كان يقال : فقه كوفي وعبادة بصرية .

وقد روى أبو الشيخ الأصبهاني بإسناده عن محمد إبن سيرين أنه بلغه أن قوماً يفلون لباس الصوف فقال : إن قوماً يتخيرون الصوف يقولون إنهم متشبهون بالمسيح بن مريم وهدي نبينا أحب إلينا ، وكان النبي r يلبس القطن وغيره أو كلاماً نحواً من هذا.

ثم ذكر الشيخ إبن تيمية ما يحكى من أن أحدهم كان يغشى عليه عند سماع القرآن وذكر قول السلف فيه ثم قال : والذي عليه جمهور العلماء أن الواحد من هؤلاء إن كان مغلوباً عليه لم ينكر عليه ، وإن كان حالُ الثابت أكملَ منه .

ثم ذكر الأحوال التي أشتهرت عنهم من الغشي ، أو الموت أو الفناء وغيره ، فقال : والتحقيق أنهم في هذه العبادات والأحوال مجتهدون كما كان جيرانهم من أهل الكوفة في مسائل القضاء والإمارة ونحو ذلك.

ثم قال : وإذا عرف أن منشأ التصوف كان من البصرة وإنه كان فيها من يسلك طري العبادة والزهد ممن له في إجتهاد كما كان في الكوفة من يسلك طريق الفقه والعلم ماله فيه إجتهاد ، وهؤلاء نسبوا الى اللبسة الظاهرة وهي لباس الصوف فقيل في أحدهم : صوفي ، وليس طريقهم مقيداً بلباس الصوف ولا هم أوجبوا ذلك ولا علّقوا الأمر به لكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال ، ثم التصوف عندهم له حقائق وأحوال معروفة قد تكلموا في حدوده وسيرته وأخلاقه كقول بعضهم : الصوفي من صفا من الكدر وإمتلأ من الفكر وأستوى عنده الذهب والحجر ، التصوف : كتمان المعاني وترك الدعاوى وأشباه ذلك وهو يسيرون بالصوفي الى معنى الصدّيق وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون ، ثم ذكر كلام بعض أهل العلم فيهم .

ثم قال : والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما أجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ففيهم السابق المقرب بحسب إجتهاده ، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين وفي كلٍ من الصنفين من قد يجتهد فيخطيء ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب ، ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاصٍ لربه وقد أنتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم.

ثم قال : وصارت الصوفية ثلاثة أصناف : صوفية الحقائق ، وصوفية الأرزاق ، وصوفية الرسم.

فأما صوفية الحقائق : فهم الذين وصفناهم ، وأما صوفية الأرزاق : فهم الذين وقفت عليهم الوقوف كالخوانك فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق فأن هذا عزيز وأكثر أهل الحقائق لا يتصفون بلزوم الخوانك ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط :
أحدها : العدالة الشرعية بحيث يؤدون الفرائض ويجتنبون المحارم.
والثاني : التأدّب بآداب أهل الطريق وهي الآداب الشرعية في غالب الأوقات ، وأما الآداب البدعية الوضعية فلا يلتفت إليها . والثالث : أن لا يكون أحدهم متمسكاً بفضول الدنيا فأما من كان جمّاعاً للمال ، أو كان غير متخلق بالأخلاق المحمودة ولا يتأدب بالآداب الشرعية أو كان فاسقاً فأنه لا يستحق ذلك .
وأما صوفية الرسم : فهم المقتصرون على النسبة فهمّهُم في اللباس والآداب الوضعية ونحو ذلك ، فهؤلاء في الصوفية بمنزلة الذي يَقتصر على زي أهل العلم وأهل الجهاد ونوعٍ ما من أقوالهم وأعمالهم بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره أنه منهم وليس منهم .
ثم بسط في البحث عن لفظ الفقير حتى قال : لكن لما كان جنس الزهد في الفقراء أغلب صار الفقر في إصطلاح كثير من الناس عبارة عن طريق الزهد وهو من جنس التصوف . ثم ذكر إختلاف أهل العلم في أفضلية الفقير على الصوفي .

ثم قال والتحقيق أن أفضلهما أتقاهما فأن كان الصوفي أتقى لله كان أفضل منه وهو أن يكون أعمل بما يحبه وأترك لما لا يحبه فهو أفضل من الفقير ..أهـ
فأنظر رعاك الله هل قال عنهم الشيخ إبن تيمية أنهم كفارٌ ومشركون أو عَبَدَةُ القبور أو التصوفُ تشيُّع أو غير ذلك ، بل هو يحقّقُ تسميتهم بالصوفي ويذكر تعريف التصوف مع الثناء والإجلال لهم فليلاحظْ كلُّ من ينتمي الى السلفية موقفَ أبرزِ شيوخِ سلفية اليوم وهو الشيخ إبن تيمة في عقد فصل كبير في التصوف يسعى من خلاله الى فصل الصوفية عن المتصوفة الأدعياء وتحقيق بعض مصطلحاتهم وأبحاثهم والذب عنهم وتمييزهم بألقاب حسنة عمن تشبه بهم وعدل عن طريقهم .
.2وفي مجموع الفتاوى ج١١ ص١٥ ما نصه : فالسالك طريق الفقر والتصوف والزهد والعبادة إن لم يسلك بعلمٍ يوافق الشريعة ، وإلا كان ضالاً عن الطريق ، وكان ما يفسده أكثر مما يصلحه ، والسالك من الفقه والعلم والنظر والكلام إن لم يتابع الشريعة ويعمل بعلمه ، وإلا كان فاجراً ضالاً عن الطريق فهذا هو الأصل الذي يجب إعتماده على كل

مسلم . أهـ

فأنظر هداك الله الى هذا الأصل الأصيل وهو يوافق ما قاله السادة الصوفية من أن كل طريقة تخالف الشريعة فباطلة ويوافق ما أشتهر من أن طريقنا مقيدٌ بالكتاب والسنة فما وافقهما فعلى العين والرأس وإلا فيضرب بعرض الحائط ، وهكذا كان حال أئمة تصوف الحقائق كما عبر به عنهم.

وذكر أيضاً في مجموع الفتاوى ج١١ ص٧٠ مانصه : وأما المتأخرون فالفقير في عرفهم عبارة عن السالك الى الله تعالى كما هو الصوفي في عرفهم أيضاً . أهـ

وتأمل بعناية ما قاله في تعريف الفقير وشبّه به الصوفي إنه السالك الى الله تعالى ، وبهذا يفارق الصوفي كلّ متصوِّفٍ غير سالك طريق الحق سبحانه وتعالى.

وذكر أيضاً في مجموع الفتاوى ج١١ ص١٩٤ ما نصه : وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم " القراء " فيدخل فيهم العلماء والنساك ، ثم حدث بعد ذلك إسم الصوفية والفقراء . أهـ

وذكر أيضاً في مجموع الفتاوى ج١١ ص٤٣٣ ما يتعلق ببعض مصطلحات لسادة الصوفية من بيان الصواب فيها فقال مانصه : وأما الأوتاد فقد يوجد في كلام البعض أنه يقول : فلان من الأوتاد يعني بذلك أن الله تعالى يثبّتُ به الإيمان والدين في قلوب من يهديهم الله به كما يثبّت الأرض بأوتادها . وهذا المعنى ثابت لكل من كان بهذه الصفة من العلماء ، فكل من حصل به تثبيت العلم والإيمان في جمهور الناس كان بمنزلة الأوتاد العظيمة والجبال الكبيرة ومن كان بدونه كان بحسبه ، وأما القطب فيوجد أيضاً في كلامهم فلان من الأقطاب أو فلانٌ قطبٌ فكل من دار عليه أمر من أمور الدين أو الدنيا باطناً أو ظاهراً فهو قطب ذلك الأمر ومداره.

ثم قال : لكن الممدوح من ذلك من كان مداراً لصلاح الدنيا والدين دون مجرد صلاح الدنيا فهذا هو القطب في عرفهم ، فقد يتفق في بعض الأمصار أن يكون شخص أفضل أهل عصره . أهـ

.3وقال في مجموع الفتاوى ج١١ ص٥١٠ : وأما أنتساب الطائفة الى شيخ معين فلا ريب أن الناس يحتاجون من يتلقون عنه الإيمان والقرآن كما تلقى الصحابة ذلك عن النبي ٢ وتلقاه عنه التابعون ، وبذلك يحصل إتباع السابقين الأولين بإحسان فكما أن المرء له من يعلمه القرآن ونحوه فكذلك له من يعلمه الدين الباطن والظاهر.

.4وقال في كتاب الإستقامة ج١ ص١٦٣ : والصوفية يوجد فيهم المصيب والمخطيء كما يوجد في غيرهم ، وليسوا في ذلك بأجلٍّ من الصحابة والتابعين ، وليس أحد معصوماً في كل ما يقوله إلا رسول الله . ٢

وقال أيضاً في ج١ ص٢١٢ : وهذه المسألة مسألة حد الكلام قد أنكرها عليهما جميع طوائف المسلمين حتى الفقهاء والأصوليون والمصنفون في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد يذكرون الكلام وأنواعه من الأمر والنهي والخبر ومافيه من العام والخاص ، وأن الصيغة داخلة في مسمى ذلك عند جميع فرق الأمة : أصوليها وفقيهها ومحدثيها وصوفيها . أهـ

لاحظْ كيف جعل الصوفيةَ فرقةً من فرق الأمة المحمدية مثل المحدثين والفقهاء والأصوليين وهذا في كلامه كثير جداً ونكتفي ههنا بشهادة الشيخ إبن تيمية رحمه الله تعالى في التصوف والصوفية وهذا غيض من فيض في كتبه لاسيما مجموع فتاويه ، وسنقف معك أيها القاريء الكريم بمشيئة الله مع الشيخ العلامة إبن القيم الجوزية في بيان شهادته وموقفه من التصوف والصوفية وذلك من كتبه الشهيرة .

هذا وآخرُ دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.